**القيم والتصورات النمطية للفرد العراق**

**د.عبد علي سفيح**

مستشار سابق في وزارة التربية والتعليم العالي الفرنسية

**الملخص:**

إن هذه الدراسة عن القيم والتصورات النمطية للفرد العراقي تهدف الى اكتشاف ماهو مشترك بين أنماط الفهم، والعناصر التي تحدد الأولويات في الحكم، هي ظاهرة أو حدث يومي يعيشه العراقيون.

إن دراسة الموقف والسلوك للفرد يحتل مكانة خاصة في علم النفس الاجتماعي، وقد وجدنا في هذه الدراسة أن الازمة التي يعاني منها الفرد العراقي والمجتمع بأكمله والتي تحدد قيم وأنماط تفكيره هي ازمة الثقة بين الحاكم والمحكوم.

**Sumary**

This study on the values and perceptions of the Iraqi individual aims to discover what is common between the patterns that determine priorities in judging a phenomenon on daily event experienced by the Iraqis.

The study of the attitude and behavior of the individual holds a special place in social psychology. We have found in this study that the crisis experienced by the Iraqi individual and society as a whole, which determines the values and patterns of his thinking, is a crisis of trust between the ruler and the ruled.

**الكلمات المفتاحية:**

**قيم، فرد، نمطية.عراقي، استبيان.**

**المقدمة:**

يشغلنا كثيراً المآل الذي صرنا عليه كعراقيين، فلماذا نجد بأن الاتجاهات الحضرية والابداعات الفكرية تراجعت؟ السلطات المتعاقبة غيرت ممارسة الأيديولوجيات ولكن رغم اختلافها إلا انهم سلكوا نفس السلوك الذي لا يبني دولة المواطنة!

إن الموقف والسلوك يحتل مكانة مركزية في علم النفس الاجتماعي، فمنذ ثلاثينات القرن الماضي ولا زال يحتفظ بهذه الأهمية حتى يومنا هذا.

إننا نحاول في هذه الدراسة ايجاد المفاتيح الأساسية التي تسهل لنا فهم اعماق الشخصية العراقية والتي تجيب على عدة أسئلة منها:

من الذي يحدد خيار الفرد العراقي بالحكم على قضية أو ظاهرة معينة؟

وما هو الاطار المعياري الذي يحدد تصرفات واختيارات العراقيين؟ وما هي الأبعاد الرئيسية لهذا الاطار الذي يتم من خلاله فهم الظواهر وتفسيرها؟

إن القيم عنصر أساسي في الحياة الاجتماعية، فهي أدلة، وتسمح أيضا بتبرير المواقف، فترتكز هذه الدراسة على مسألة تأثير القيم وفقا لشوارتز على التصور النمطي( وهنا نقصد به الفردي والمجتمع)(1).

إذا كانت كلمة نمطية استخدمت في 1922 في العلوم الاجتماعية(2)، وهي مرادفة لكلمة كليشةالتي استخدمها الأخوين ديدوت(3)، فقد عرفها الصحفي والفنان والتر ليبرمان على انها صور في الرأس ذات بعد عاطفي(4)، وبالتالي، فان القوالب النمطية هي تمثيلات لمجموعة بشرية، ثم تعريفهم حسب المعتقدات التي يشتركون فيها(5).

على سبيل المثال: الفرنسيون دائما يتذمرون، والايطاليون يتحدثون بأيديهم، والنساء ثرثارات وبديهيات(6). أي أن الأحكام حول ظاهرة أو حادثة لا تصدق بشكل عشوائي، لأن الفرد والمجموعة البشرية ينظر اليها على انها كيان، أي كشيءٍ متماسك(7).

اما القيم فعرفناها وفقا لشوارتز: على انها مستقلة عن ثقافات وجنس الأشخاص ويستخدمها الانسان لتبرير فعله، وكذلك تلعب دورا تنظيميا بين الفرد والمجتمع، ولذلك تعكس هذه القيم تصوراً على الجماعات والأفراد، ولاسيما على تصور القدرة على الجاذبية، التي هي نفسها مرتبطة بالتبرير والتنظيم(8).

إن الاختلافات الثقافية تؤثر على انماط التفكير والسلوك وتؤثر على الطريقة التي نفكر فيها.

يقول علماء الاجتماع: يرث كل شخص أربع أرصدة من المجتمع وهي: الرصيد الثقافي، والمالي، والاجتماعي، والرمزي، وهذه الأرصدة الموروثة حسب بورديو تختلف من بلد لآخر بصورة واضحة، وبدرجة أقل من شخص لآخر في الوطن الواحد(9).

إن هذا الارث يؤثر على الذاكرة والانتباه والادراك والتفكر والطريقة التي نتحدث ونفكر بها، وعلى سبيل المثال: تبرز الاختلافات بين الشرق والغرب خصوصاً عند التطرق الى مفهومي الفردية والجماعية، اذ يميل الغربيون بصفة عامة الى نمط الحياة الفردي المستقل، بينما يتجه الشرق الى نمط الحياة الجماعية المشتركة، كذلك يقلل الشرقيون من قدراتهم الذاتية حتى لو كانت عالية (أي تواضع الذات)، بينما يبالغ الغربيون في قدراتهم الذاتية (أي تضخم الذات). كذلك بين الغرب أنفسهم نجد اختلاف في السلوك، على سبيل المثال: التحية الانكليزية هي حركة في الرأس والشفاه بقولهم صباح الخير، بينما التحية الفرنسية بمصافحة الأيدي أو التقبيل، أي ومن بلد لآخر ليس لدينا نفس طريقة التفكير.

قبل 42 عام غادرت العراق لإكمال دراستي الدكتوراه في فرنسا، وقبل مجيئي الى فرنسا، كنت قد اعددت نفسي بدقة، كوني حاصل على شهادة الماجستير في العلوم الزراعية، ولي تجربة مهنية وبحثية في جامعة بغداد كعضو هيئة تدريسية، وكانت الكليات العلمية تتبع المنهج العلمي الاستقرائي الذي يختص به الانكليز في البحوث التطبيقية، هذا المنهج ينقل الباحث من التطبيق (الواقع)، الى النظرية (الاستنتاج).

وعندما قابلت مجموعة من أساتذة جامعة بوردو الفرنسية، وشرحت أمامهم تجربتي السابقة، فسارع أحد الأساتذة بالسؤال: كيف توصلت الى هذه الاستنتاجات في دراستك، وما هي الفكرة التي بنيت عليها بحثك؟ شعرت وكأنهم يشككون في مصداقيتي، علما اني أكدت لهم المنهجية وطريقة البحث الموثوقة والتي تستند الى الكثير من الأبحاث التطبيقية.

إن الجدار الذي صادفته أمامي عند أول مقابلة لي مع الأكاديميين الفرنسيين هو: الفكرة ( النظرية ) أولا، ثم التطبيق (المنطق) ثانياً، هذا المنهج هو المنهج الاستنباطي الذي تتميز به شعوب البحر الأبيض المتوسط مع روسيا وألمانيا. وروى لي مؤخرا أحد أساتذة الكيمياء الحيوية في فرنسا، والذي قد عاش في تجربة معاكسة مر بها في أمريكا في جامعة الينويز بأن منهج التفكير البريطاني قد تأثر كثيرا بالفيلسوف الانكليزي والذي يعتبر مؤسس المنهج التجريبي ألا وهو (روجر بيكون) في القرن الثالث عشر ميلادي(10). بينما حوض البحر الأبيض المتوسط وروسيا والمانيا تأثروا بالمنهج الاغريقي.

أما فرنسا فقد تأثرت بالفيلسوف رينيه ديكارت وطريقة تفكيره المبنية على النظرية أولاً، كذلك نجد هذا المنهج عند مؤسس علم الاجتماع الفرنسي دوركاهيم(11).

ينطلق الانكليزي مباشرة الى صلب الموضوع، ويلتزم بأمثلة محددة قد حدثت في أماكن أخرى، ثم يحدد الاستراتيجية والخطوات التالية، إذ يقضي الانكليزي وقت قليل في بناء نظرية أو مفهوم، ولا يحتاج الى وقت في تفسير ومناقشة المفهوم الأساسي.

إن هذا ما شاهدناه عند التحدث عن ظاهرة داعش، فالإنكليزي والأمريكي يهتم بالوسيلة ولاستراتيجية التي وضعت لتحديد حركة داعش، بينما الفرنسي يقضي وقتا طويلا في الكلام عن النظرية التي تؤمن بها داعش، وعن كيفية انتقال الشباب الى التطرف الديني، وتحليل الخطاب الذي يدفع الشباب الى التطرف الديني، وكيفية وضع خطة استباقية للكشف عن بداية التطرف.

من هذه المقدمة البسيطة، رغبنا ان نعرف أولا، هل نحن قريبون الى المنهج الانكليزي، ام الى المنهج اللاتيني في تفسير الظواهر والحوادث اليوميةوالتي تؤثر على تصوراتنا النمطية؟

**الهدف من هذه الدراسة:**

إن الهدف من هذه الدراسة: اكتشاف ما هو مشترك بين أنماط الفهم، وعن العناصر التي تحدد الأولويات في الحكم على ظاهرة أو حدث يومي عند العراقيين.

**أما طريقة البحث:**

فمن الصعب أن ندرس مجتمعا بكامله، لذا نلجأ الى اختبار عينة من المجتمع تحمل خصائصه ومميزاته، وتسمح بتعميم النتائج على المجتمع بأكمله اذا كانت العينة كبيرة وممثلة للمجتمع.

ولعل من أهم المشكلات التي تواجهنا نحن في المهجر هي مشكلة الحصول على العينة التي يجري عليها البحث، على اعتبار ان هذه العينة يتوقف عليها كل قياس أو كل نتيجة ينتهي اليها البحث.

لقد أخذنا عينتين للبحث، احداهما عينة انتقائية شبه متجانسة متكونة من 30 شخصية عراقية من النخب العالية وذوي تجاربمهنية سواء داخل العراق أو خارجه، والأخرى عينة عشوائية غير متجانسة من 30 شخصية عراقية من خارج وداخل العراق، فلقد تم انتقاء العينتين عن طريق الهاتف الشخصي، وعن طريق الفيس بوك، لأنهما مصادر قريبة ومتاحة لنا.

طرحنا سؤالاً مرفقا بصورتين، احداهما صورة لكلية الطب الملكية العراقية في 1934، والثانية صورة لتظاهرة في شارع الرشيد في أواخر ثلاثينات القرن الماضي.

إن السؤال هو: لقد استطاع العراقيون بناء دولة مدنية حديثة في فترة زمنية قياسية من 1921 الى أواخر الثلاثينات من القرن الماضي، ما هو سر هذه النهضة الفكرية، الثقافية، العلمية، الأدبية؟

علما لم يكن سببها البترول لأنه اكتشف حديثا، ولا سببها وجود مفكرين وفلاسفة النور والحداثة كما حدث في أوربا؟

**الأجوبة والنتائج:**

لقد جمعت البيانات والأجوبة والتي قد صنفت بحسب سلم الأولوية لأفراد العينتين محل الدراسة.

وهنا فإننا ننقل الأجوبة كما استلمناها دون الاضافة والشطب، وأكدت الأجوبة بأن الحداثة والنهضة تعود الى:

1.الفرد العراقي: لأن الفرد العراقي يحمل ارثا غنيا من الحضارة والتاريخ، وهذا الارث رسخ لديه جذور الفخر والاعتزاز بالذات والأنا العراقية، مع شعوره في الأسبقيةبصناعة التاريخ والحضارة، مما أعطته الاستعداد الكامل في أن يكون حاضنة خالصة في تقبل النظريات الحضرية والثقافية والسياسية، والتفاعل مع المتغيرات المعاصرة التي تعيشها الشعوب المتقدمة.

لقد تفاعل العراقيون مع الحداثة التي هبت عليهم من أوربا بشكل ذكي جدا، لأن الحداثة التي كان ينادي بها المسلمون في بداية القرن العشرين أمثال الكواكبي، والطهطاوي، والأفغاني، ومحمد عبده، كانت حداثة نابعة من الثقافة الاسلامية، لكن النخب العراقية تبنوا الحداثة الأوربية لأنها ولدت صدى في أعماقهم الفكرية.

2.الطبقة الحاكمة: نظام الحكم كان يمثل نخبة من أهل الحل والعقد. رجال دولة ومهنيون مخلصون لوطنهم يتمثلون بالنزاهة . كانت النخب الحاكمة تحترم ذو الاختصاص والخبرة، ويتعاملون من الاختلاف بمنطق العقل لا بمنطق المصلحة الشخصية الضيقة. وكانت الطبقة الحاكمة من أصحاب التجربة الشخصية العاليةحيث كان بعضهم يجيد 5 لغات مثل السيد جعفر العسكري، اما الآخرون كانوا يجيدون 3 لغات. رغم هذه الكفاءات الا أن الطبقة الحاكمة استعانت بالخبرات الأجنبية وخاصة في مجال بناء البنى التحتية في مجال الري، والزراعة، والتعليم، والصحة، والادارة، وحفظ الآثار والتراث العراقي.

فهي ادارة حكيمة كانت تدرك أن كل انجاز يتحقق يحسب لها، وكذلك الفشل أيضا يحسب عليها، وعليه يكون هنا القياس لوطنية الادارة وعمالتها للأجنبي.

3.الانكليز: وجود الانكليز مع رغبة عالمية كبيرة بتحديث العراق ووضعهم على رأس الدولة ملكا نزيها وعادلا ويحب الخير للعراقيين. كذلك جمع الانكليز الآثار العراقية وبنوا المتحف الوطني العراقي في عام 1923 لتعزيز الهوية الوطنيةلعراقية. كذلك الانكليز بنوا البنى التحتية للدولة العراقية وخاصة ملف المياه، بنوا سد دوكان، وسد دربنديخان، وسد الثرثار لحماية العراقيين من الفيضانات، وزيادة الموارد الزراعية والحيوانية. فلولا الانكليز لبقي العراق دولة متأخرة، ونجد اليوم بفضل الانكليز، تحولت مشايخ الخليج الى امارات عامرة، وتعتبر دبي عاصمة عالمية لها مكانة عالمية مثل طوكيو وباريس ولندن.

4.الأحزاب السياسية: من 1920 الى منتصف الثلاثينات، لا الدولة ولا الشعب يملك عقيدة سياسية في هذه الفترة، ولم نجد تصادم بين الشعب والسلطة لعدم وجود تيارات سياسية. كذلك الدين لم يلعب دور الضاغط على الحكومة، فوحدة نسيج السلطة، ووحدة النسيج الاجتماعي عجل بسرعة في بناء الدولة العراقية الحديثة.

5. التنوع الاجتماعي: لا شك أن التنوع الاجتماعي، وتنوع المرجعيات الدينية والقبلية من اليهود، والنصارى، والمندائين، والمسلمين، كذلك المرجعيات القبلية العربية، والكردية، والتركية سهلت النهضة والحداثة، على سبيل المثال في المجال الفني: كانت الفنانة سليمة مراد يهودية، وعفيفة اسكندر مسيحية، ولميعة توفيق مسلمة، وزهور حسين ايرانية، فهذا التنوع كان صورة بغداد مما جعلتها دولة مدينة، وعاصمة عالمية وبوابة ومرآة العالم لإرثها التاريخي الكبير.

6. الإعلام:الحداثة والنهضة في العراق كان يدعمها الإعلام من عرض حياة الباشوات، والملوك، والأطباء، والشعراء، والفنانين، أي كل من يمتلك منزلة اجتماعية يشغل الاعلام المرئي والمقري. اما اليوم، الاعلام يطبل لأهل الشوارع الذين تبوئوا المناصب دون اقتدار مهني.

7. الثروة العراقية: كان العراق دولة متعددة المصادر والموارد، وخاصة الزراعة والثروة الحيوانية الغزيرة، والتي تتطلب المشاريع الكبرى والادارة الجيدة، لكن تحول العراق بعد 1958 الى دولة ريعية ذو مورد اساسي هو البترول.

**الاستنتاج:**

يتيح لنا تحليل البيانات، القاء نظرة على ظواهر مثيرةللاهتمام وهي:

1.السياسة: العراقي بصورة عامة يسيس أية ظاهرة أو حدث يومي، فهو يعشق السياسة الا انه لا يحب رجال السياسة لأنه يرمي مشاكله عليهم ويحملهم مسؤولية الاهمال وفقدان المشاعر الوطنية وتفضيل المصلحة الفردية الضيقة على المصلحة العامة. اما اذا كان هناك عمران ونهضة،، فيعزيها الى نفسه والى النخبة الحاكمة لمهارتهم ونزاهتهم وقدراتهم بالاستفادة من مهارات وابداعات العراقيين المتنوعة.

تحليل هذه الظاهرة: عشق العراقي للسياسة هو ليس السبب بل نتيجة لسبب عميق وهو: السياسة للعراقي تمثل الثقافة. العراقي يملك هوية ثقافية عريقة. نجد العراقي يفتخر بمعرفته رجل مثقف أو أديب، أو شاعر، او فنان، بينما لا يفتخر بنفس الدرجة بمعرفته بتاجر غني أو سياسي بارز.

يتبنى العراقيون السياسة كفكرة وليست كعقيدة. يتبنى الفكرة العابرة لحدوده مثل الفكر الماركسي الشيوعي، والفكر القومي البعثي والناصري، والفكر الاسلامي للدعوة، بينما الأفكار المحلية غير عابرة لحدوده لم يتعاطف معها العراقيون مثل الحزب الوطني العراقي لكامل الجادرجي، وحزب الاستقلال لمحمد مهدي كبة، وحزب الاتحاد الدستوري لنوري السعيد. اما العقائد، فاتخذ العراقيون المذاهب الدينية لأنها ولادة محلية، مثل التشيع لعلي بن أبي طالب، والتسنن الحنفي لأبي حنيفة النعمان، وهذا ما وجدناه واضحا في الانتخابات البرلمانية العراقية بعد 2003، العراقي عندما يذهب الى صناديق الاقتراع الذي ينتخب هو عقيدته المذهبية وليست أفكاره الحزبية على حد قول الأستاذ حسن العلوي. التيارات الحزبية تساهم في تحرير العراقي من محتواه الاجتماعي دون أن تقطع جذوره التاريخية.

يهوى العراقي السياسة لأنه يرمي كل عيوبه على الغير. يرمي عيوبه تارة على الاستعمار واسرائيل والرجعية ، وايران وتركيا والخليج، وتارة أخرى على رجال السلطة والحكم، اعتقادا منه بأن التمزق الاجتماعي سببه التمزق السياسي، بينما لا يرى العكس، التمزق السياسي هو نتيجة التمزق الاجتماعي.

إن العراقي يحترم ويقدر الرموز الدينية والقبلية، بينما لا يحترم ولا يقدر الرمز السياسية، بل بالعكس، يقتلوهم ويسحلوهم ويعلقونهم على المشانق، واذا اتجه أحد الرموز الدينية الى السياسة، فسوف يكون مصيره الموت مثلما حصل للسيد محمد باقر الصدر، والشيخ عبد العزيز البدري، والسيد محمد صادق الصدر، والسيد محمد باقر الحكيم وغيرهم.

كذلك العراقي يعشق الشعر الاجتماعي بدل الشعر السياسي، على سبيل المثال: قصيدة الأرملة المرضعة للشاعر الرصافي، وانشودة المطر للسياب، والغربة في مدن الشحاذين للبياتي.

2. قيمة المساواة والعدالة هي القيمة الأساسية في التصورات النمطية للفرد العراقي، ومن هذه القيمة يتم معيار الرضا أو السخط للسلطة الحاكمة. العراقي يعطي أولوية لهذه القيمة على باقي القيم ومنها قيمة الحرية. يمكن للعراقي أن يتنازل عن حريته مقابل العدالة والمساواة وحتى لو كانوا حكاما ديكتاتوريين.

العراقيون وخاصة الشيعة منهم يحترمون مراجعهم الدينية لأنهم يعيشوا كما يعيش عامة الناس رافضين شغف العيش. كذلك ثناءهم على عبد الكريم قاسم ليس لأنه ديمقراطي، أو حرر العراق من معاهدة حلف بغداد التي ترضي النخب السياسية، بل لأنه ساوى بين أفراد الشعب العراقي. ساوى بين الفلاح والاقطاعي، وساوى بين أهل الصرائف وأهل المدن، ومقولته الشهيرة في معظم خطاباته: أيها السادة، ولا مسود بعد اليوم.

السؤال هو: لماذا يفضل العراقيون قيمة المساواة والعدالة على باقي القيم؟

الجواب هو: قيمة المساواة والعدالة قيمة محلية غرسها الامام علي في الكوفة. لو استبينا التصورات الفكرية للشعوب الاسلامية ومنها العربية عن الامام علي، لكانت الشجاعة وتكريم وجهه من عبادة الأصنام اضافة لقربه من الرسول محمد، أي هذه الصفات هي التي تحدد تصوراتهم النمطية. بينما العراقي حين نذكر أمامه الامام علي، فالصورة النمطية التي تأتي أمامه هي العدالة والمساواة. قد يكون هذا ناتج من شعور شيعة علي بالظلم وعدم العالة لأنهم أقلية، وهذا ما نراه عند المسيحيين العرب ، كذلك يولون عشقا للإمام علي بسبب عدالته والمساواة، والدليل على ذلك كتاب الأديب جورج جرداق علي صوت العدالة الانسانية، ولم يقل، علي صوت الحرية الانسانية، وقد يكون احساس المسيحيين بالظلم لأنهم أقلية في المحيط الاسلامي جعل صورة قيمة المساواة والعدالة هي الصورة النمطية في اذهانهم.

كذلك ظاهرة ملحمة كربلاء للإمام الحسين. القيمة الأساسية في التصورات النمطية للعراقيين في تفسير هذه الظاهرة هي ان الامام الحسين قتل مظلوما. أيضا غياب العدالة عند آل أمية، وتفضيلهم رجال آل أمية على بقية المسلمين هي التي دفعت الامام الحسين للثورة. أعطى العراقيون لقيمة العدالة والمساواة في ملحمة كربلاء بعدا اسطوريا وجمالا بلاغيا وفنا أدبيا رائعا.

3. الحاكم: أشاد معظم العراقيون بنزاهة رأس السلطة مثل الملك فيصل الأول، واعتبروه أبا لهم، كذلك أشادوا بأبوة الرئيس السابق عبد الرحمن عارف وأحمد حسن البكر.

4. القضاء: يندر أن يذكر العراقيون أهمية القضاء في بناء الدولة العراقية الحديثة، سوآءا من نتائج الاستبيانات أو من مصادر منظمات المجتمع المدني. يدرك العراقيون جيدا من أن هجرتهم للخارج اساسها البحث عن الأمان لأموالهم وأنفسهم واعراضهم وكرامتهم بفضل سيادة القانون في تلك الدول. ولدينا قول شهير: من أمن العقاب أساء الأدب. كان سابقا في العهد الملكي، يذهب شرطي الخيالة الى الريف حاملا مسدس صغير، يحترمه الناس وهو وحيدا بين عشائرهم وقبائلهم، يهابوه لأنه يمثل القانون.

تحليل هذه الأجوبة: إن العراقي يعطي ثقته وولاءه للرجل الذي يتخذوه أبا وليس أخا، لأن الأب لا يقتل أولاده، اما الأخ ممكن أن يقتل اخوته. قتل عبد الكريم قاسم اخوته في النضال من ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري، وقتل عبد السلام عارف أخوه في الثورة عبد الكريم قاسم، وقتل صدام حسين اخوته في النضال السري والعلني.

**الخاتمة:**

يشغلنا المآل الذي صرنا عليه كعراقيين، لماذا هذه الاتجاهات الحضرية والابداعيات الفكرية والعلمية والثقافية تراجعت؟

تشتت الطاقات، وغياب الرؤية المشتركة، والافتقار الى ادارة حكيمة، جعل العراق بأكمله ينتظر رجل مخلص.

اذا عثرنا على الأسباب الجذرية التي أدت الى النمو والنهضة،في بدايات القرن الماضي، حينها يمكننا أن نحدد الأسباب التي أدت الى التخلف والهدم.

لتجنب هذه الانجرافات، سيكون البدء منذ البداية،هو تحديد العناصر التي تشكل أساس الرؤية العراقية وأولوية التصورات النمطية الفكرية. كذلك اكشاف المشترك بين أنماط الفهم عند العراقيين والكشف عن العناصر التي تحدد الأولويات في الحكم على الظواهر والأحداث التي تحيط به.

إن السلوكيات والعقلانية كانت العامل الرئيسي في التنمية والتطور. سلوكيات النخب الحاكمة استطاعت أن تحرر المجتمع العراقي من محتواه الاجتماعي دون أن تقطع جذوره الثقافية، مما ولدت هذه السلوكيات الى بناء ٌ مجتمع الثقة ٌ.

في هذه الدراسة انتقينا عينتين بحثيتين من داخل وخارج العراق. العينة الأولى متجانسة تمثل 30 شخصية عراقية من النخب التي تملك تجربة مهنية ، والعينة الثانية غير متجانسة وتتكون من 30 شخصية. طرحنا على العينتين السؤال التالي: ما هو سر الحداثة والنهضة الفكرية والأدبية والسياسية والثقافية والعلمية في العراق من 1921 الى نهاية الثلاثينات من القرن الماضي، ليس وجود البترول سببا لأنه اكتشف حديثا، ولا وجود مفكرين وفلاسفة النور كما حدث في أوربا؟

جمعت البيانات وصنفت حسب سلم الأولوية للقيم والتصورات النمطية، واستنتجنا ما يلي:

الازمة التي يعاني منها الفرد والمجتمع العراقي بأكمله، والتي تحدد قيم وأنماط الفكر الفردي والجمعي العراقي هي ٌ ازمة الثقة ٌ بين الحاكم والمحكوم.

يجب أن نذكر أولا أن العراق ليس مملكة الثقة والتاريخ يشهد على ذلك. هذه ليست حالة ازمة بقدر ما أن تكون حالة روح دائمة، نرى العراقي غير راض ومتشائم ويضج بالشكوى دائما. قد نشترك مع الفرنسيين في هذه الصفة حين قال الجنرال شارل ديغول كيف تحكم شعب له 350 نوع من الأجبان؟ نحن كذلك ممكن أن نقول، كيف تحكم العراق ولديه 600 نوع من التمور؟

العراقيون يشكوا ليس لأنهم غير سعداء، بل لأن لدى العراقيين شغف المناقشة والمثالية حتى الجدل.

كذلك العراقيون يعانون من المقارنة. ليست المقارنة بالشعوب التي تحيط بهم، بل يقارنون بأنفسهم مع أنفسهم. يقارنون حاضرهم مع ماضيهم. هذه الحالة مصدرها حسب اعتقادنا، عقلانية العقل العراقي التي ورثها من تاريخه حيث كان يسمى العراق ببلد الرأي، اما الحجاز وكذلك أهل الشام كانوا يمثلون أهل الحديث والنقل. هذا العقل لا يوحد لأنه يشجع على الشك والنقد والمقارنة.

كذلك العراقي يعاني من الدولة العالمية أو الامبراطورية. يعيش في خياله العراق العظيم، بابل بوابة الآلهة، والكوفة عاصمة العالم الاسلامي، وبغداد حاضرة العالم، وحتى الشعوب الأخرى اتخذوا من العراق عواصم لهم مثلا الفرس اتخذوا من المدائن عاصمة لهم، وعرب الجزيرة اتخذوا من الكوفة عاصمة لهم بدلا عن المدينة المنورة.مثل هذه الظواهر لم تحدث في التاريخ، لم يتخذ الاغريق عاصمة لهم بدلا عن أثينا، ولا الرومان اتخذوا عاصمة لهم بدلا عن روما، ولا العثمانيون بدلا عن اسطنبول، ولا الانكليز بدلا عن لندن.

اما الازمة الاجتماعية، والازمة السياسية، وازمة التواصل، هذه الازمات الثلاث،تتعايش في العراق ويبدو في النهاية انها تحافظ على علاقات معقدة للغاية. لا يمكن أن يكون هناك تواصل سياسي عند وجود فقدان الثقة الاجتماعية. العراقي ينتخب لمن يوليه الثقة، فعند ذهابه الى صناديق الاقتراع، عقيدته الطائفية تنتخب على حد قول الأستاذ حسن العلوي، او ولائه القبلي وان لم يكن المنتخب جديراً بالمسؤولية.

لقد عبر العراقيون عن الازمة السياسية بظاهرة الفساد. فهي ليست ظاهرة جديدة لكنها شهدت مؤخرا في العراق حجما معينا بزيادة شجب الفضائح السياسية ووسع مساحة التغطية الاعلامية وتنديد منظمات المجتمع المدني لهذه الفضائح التي تورط فيها مسؤولون كبار في الدولة منذ 15 سنة الى مستوى لا مثيل له.اللافت للنظر، لوقت قريب لايبدو أن الآثار الاجتماعية والسياسية لهذه الاتهامات لها آثار جذرية على صورة الفاعلين السياسيين، بل وحتى على نتائج الانتخابات السابقة.

لقد وجدنا هناك تقاطعاًوتعارضاًبين القيم التي يؤمن بها أفراد السلطة، والقيم التي يحكم على ضوءها المواطنون. الحكام وأفراد السلطة يرون أن هذه الممارسات لا تفسد السياسة ولا تمزق النسيج الاجتماعي، بل تعمل على حفظ التماسك للنظام والمجتمع وحفظ الدولة من الانهيار التام. بل أصحاب السلطة يؤخذون على المواطنين بأنهم هم الذين لا يحترمون القيم التي تؤدي الى تقوية الدولة واحترام القانون، على سبيل المثال، اخذ الكهرباء والماء بطرق غير قانونية. أي هناك تقاطع بين اللوائح القيمية للسياسيين مع اللوائح القيمية للمواطنين. سلم القيم يكشف المسافة بين المسؤولين السياسيين والمواطنين.

**الهوامش:**

1.شوارتز.(1926). دور السياق الداخلي للمجموعة في أحكام كيان المجموعة الخارجية، مجلة علم النفس الاجتماعي، مجلد2، باريس 1926.

2. الموسوعة الدولية الجديدة، الطبعة الأولى، نيويورك1932.

3. ايريك، لو روا.(1904). تاريخ المطبعة الحديثة، باريس1904.

4. ليبرمان، والتر.(1984). تاريخ وفن صناعة الزجاج، جامعة واشنطن1984.

5. البورت.(1954). طبيعة التحيز،باريس1954.

6.ليينز.(1966). الوعي والعمليات المعرفية في الحكم الاجتماعي، مجلد63، باريس1966.

7. شادرون.(1968). كيان المجموعة الخارجية، مجلد علم النفس الاجتماعي، مجلد2، باريس1968.

8. بيير، بورديو.(1981). علم الاجتماع العام، المجلد1، باريس1981.

10. روجر، بيكون.(1976). من الفلسفة الى الحكمة في القديس روجر بيكون، روما1976.

11.دانتيير، بيرنارد.(2003). مقدمة لقواعد طرق علم الاجتماع، باريس2003.